﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: 19-20]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المَثَلان متكاملان المثل النّاري أبان ضياع أعمالهم، والمثل المائي أبان أثر القرآن في فضحهم وكشف حقيقتهم

انتقَلَ التَّمثيلُ من بيانِ جُهْدِ المنافقين في الانتفاعِ من الإسلامِ، وانقطاعِهم بعد ذلك، إلى بيانِ أَثَرِ القرآنِ في الكَشْفِ عن حقيقةِ جوهرِهم؛ فالمَثَلان مُتكاملان في بَيانِ حالِهم مع القُرآنِ، فَالمَثَلُ النَّاريُّ أَبَانَ عن ضَياعِ جهودِهم وبعثرةِ أفعالِهم الصَّادرةِ عنهم في محاولةِ التَّخفّي وَرَاءَ ما يقومون به من أعمالٍ، والمَثَلُ المائيُّ أَبَانَ عن أَثَرِ القُرآنِ في فَضْحِهم وتَشخيصِ صِفاتِهم، وهذا من تكامل التَّمثيل.

وفي ذلك قال أبو السّعود: "تَمْثِيلٌ لِحالِهِمْ إثْرَ تَمْثِيلٍ؛ لِيَعُمَّ البَيانُ مِنها كُلَّ دَقِيقٍ وجَلِيلٍ؛ ويُوَفّى حَقُّها مِنَ التَّفْظِيعِ والتَّهْوِيلِ؛ فَإنَّ تَفَنُّنَهم في فُنُونِ الكُفْرِ والضَّلالِ؛ وتَنَقُّلَهم فِيها مِن حالٍ إلى حالٍ؛ حَقِيقٌ بِأنْ يُضْرَبَ في شَأْنِهِ الأمْثالُ؛ ويُرْخى في حَلْبَتِهِ أعِنَّةُ المَقالِ؛ ويُمَدَّ لِشَرْحِهِ أطْنابُ الإطْنابِ؛ ويُعْقَدَ لِأجْلِهِ فُصُولٌ وأبْوابٌ؛ لِما أنَّ كُلَّ كَلامٍ لَهُ حَظٌّ مِنَ البَلاغَةِ؛ وقِسْطٌ مِنَ الجَزالَةِ والبَراعَةِ؛ لا بُدَّ أنْ يُوَفّى فِيهِ حَقُّ كُلٍّ مِن مَقامَيِ الإطْنابِ والإيجازِ؛ فَما ظَنُّكَ بِما في ذُرْوَةِ الإعْجازِ مِنَ التَّنْزِيلِ الجَلِيلِ؛ ولَقَدْ نُعِيَ عَلَيْهِمْ في هَذا التَّمْثِيلِ تَفاصِيلُ جِناياتِهِمْ؛ وهو عَطْفٌ عَلى الأوَّلِ؛ عَلى حَذْفِ المُضافِ لِما سَيَأْتِي مِنَ الضَّمائِرِ المُسْتَدْعِيَةِ لِذَلِكَ"[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/52.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصَّاد والواو والباء تدلُّ اشتقاقاتُهَا على نُزُول شَيْءٍ واستقرارِهِ في قرارِهِ[1]، وَمِنْهُ قولُهم: صَابَ المطرُ يَصُوبُ؛ إذا نزل مِنَ السَّماء[2]، والصَّوب: المطر، والصَّيِّبُ: سَحابٌ ذو صَوْبٍ[3]، والمرادُ بالصَّيِّبِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: المطرُ[4]، وعَلَيْهِ أكثرُ أهلِ التَّفسير[5].

2) ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: تَصَاريف الصَّاد والعين والقاف تَدُلُّ على الصَّوْتِ الشَّديد[6]، ومِنْهُ: الصَّاعقة والصَّعْقة؛ وهي: الصَّيحَةُ يُغْشَى على مَن يَسْمعهَا أَو يَمُوتُ[7]، وتُسْتَعْمَلُ في خُصُوص: صَوتِ الرَّعدِ الشَّديدِ الذي يُغشى على الإنْسَانِ مِنْهُ[8].

وتُطلق على قِطْعَةِ النَّار النَّازلة مِنَ السَّماءِ[9]، فما تُصيبُ شَيْئًا إلَّا دكَّته وأَحْرَقَتْهُ[10].

3) ﴿مُحِيطٌ﴾: أصلُ هذهِ المَادَّةِ -وهي الحَاءُ والواو والطَّاء- يدلُّ على شيءٍ يُطيفُ بشيءٍ[11]، ومِنْهُ قولُهم: أَحَاطَ القومُ بالبَلَدِ؛ إذا اسْتَدَارُوا بجوَانِبِه[12]، وأَحاطَ بِهِ الأَمْرُ؛ إذا أخذه مِن جميع جوانبِهِ، فلَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ[13].

ومِنْهُ اسمُ اللهِ (المُحِيط)؛ مِن قولهم: أحاطَ بالشَّيءِ؛ إذا استولَى عَلَيْهِ، وضمَّ جميعَ نواحِيه حَتَّى لا يُمكِن فوتُهُ ولا التَّخَلُّص مِنْهُ، فاللهُ محيطٌ بالأشياءِ كلِّهَا؛ لأنَّها تحتَ قُدرته، لا يُمكنها الخُرُوج عَن إرادتِهِ فِيهَا، ولا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْهَا شيءٌ[14].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(2) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صوب).
(3) الفراهيدي، العين: (صوب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صوب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/334-336، والماورديّ، النُّكت والعيون: 1/81.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (صعق).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صعق).
(9) ابن جُزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/73.
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صعق).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(12) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حوط).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(14) أبو القاسم الزَّجَّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 46.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَصْـــفُ حـال المـنـافـقـين إذا سمعوا القرآن

وَلِلْمُنَافِقِينَ حالٌ أخرى؛ وهي حالُهم إذا سَمِعُوا القُرآن وأوامرَه ونَوَاهِيَه وزَوَاجِرَهُ -وهم في شَكٍّ وكُفْرٍ ونفاقٍ-، فروَّعهم وَعِيدُه، وأَزْعَجَتْهُم وُعُودُه، فجعلوا يَسُدُّون آذانَهم كراهةً لَهُ وإعراضًا عَنْهُ، ولكنَّ مُحْكَمَ القرآنِ يَدُلُّ على عَوْرَاتِهم، وهُم كُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الإيمَانِ اسْتَأْنَسُوا به، إلَّا أنَّ ذلك لا يدومُ، فَتَعْتَرِضُهُمُ الشُّكوكُ؛ فتُظْلِمُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ، فيَقِفُون حائرين.

فهذه الحالةُ تُشْبِهُ حالَ قومٍ نزلَ عَلَيْهِمْ مطرٌ غزير مِن سحابٍ، تُصاحبهُ ظلماتٌ -ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر-، ورعدٌ قاصِف وبرقٌ لَامِعٌ، فجعلوا أصابعَهم في آذانهم بسبب الصَّوَاعِق المُحْرِقَةِ خشيةَ الهلاكِ، واللّه ﷻ محيطٌ بِهِمْ قُدْرَةً وعلمًا، فلا يَفُوتُونَه ولا يُعجِزُونَهُ.

يكَادُ البَرْقُ مِن شدَّة لمعانِهِ يَسْلُبُ أَبْصَارَهم، فإذا أضاء لَهُمُ الطَّريقَ مَشَوْا في ضوئِه، وإذا ذهب ضوؤُهُ أظلمتِ الطَّريقُ عَلَيْهِمْ، ووقَفُوا في أماكنهم، ولولا أَنَّ اللّه تعالَى أَمْهَلَهُم؛ لَسَلَبَ سمعَهم وأبصارَهُمْ، وهو سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ على كُلِّ شيءٍ[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

اسْتِعْمَالُ ﴿أَوْ﴾ لِمُطْلَقِ التَّسَاوِي عَلَى طَرِيقَةِ المَجَازِ المُرْسَلِ:

اسْتِقْلَالُ كُلٍّ مِنَ المَثَلِ النَّارِيِّ وَالمَائِيِّ بِوَجْهِ الشَّبَهِ

أَصْلُ (أَوْ) لِلْحُكْمِ بِتَسَاوِي أَمْرَيْنِ أو أكثرَ في الشَّكِّ، ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهَا؛ فاستُعْمِلَتْ لِلتَّساوي مِن غير شكٍّ[2]، وذلك على طريقةِ المجاز المُرْسَل، علاقَتُهُ: الإطلاقُ والتَّقْيِيد؛ فكانت (أَوْ) لِلتَّسَاوي في الشَّكِّ، فجُرِّدَت عن قَيْدِ الشَّكِّ، واستُعْمِلَت في مُطلق التَّسَاوِي.

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/81.

فـ (أَوْ) في قولِه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: تُشْعِرُ بتسَاوِي المَثَلَيْنِ -النَّاريِّ والمائيِّ- في الاسْتِقْلَال بوجه التَّشْبيه، فبأيِّهِمَا وقع التَّمثيل فالأمرُ صحيحٌ، وكذا إن وقعَ التَّمْثِيلُ بِهِمَا معًا[1].

نكتَةُ حَذْفِ الْمُضَافِ:

قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذفَ المضافُ، والتَّقدير: أو كأصحابِ صَيِّبٍ[2]، وقرينةُ الحذفِ حاليَّةٌ؛ إذْ لا يُرادُ تمثيلُهم بنَفْسِ الصَّيِّبِ كما هُو ظَاهِرٌ.

سِرُّ تَنْكِيرِ (صَيِّبٍ):

عَظَمَةُ الصَّيِّبِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

تَنْكِيرُ (صَيِّبٍ) للتّعظيم وبيان النَّوْعِ؛ وهما متآيلَان؛ فبيانُ النَّوْعِ يُقْصَدُ به أنَّه نوعٌ هائلٌ كأنَّه جِنْسٌ مُسْتقلٌّ عنِ المعهودِ مِنْهُ، وهذا يَؤُولُ إلى معنى التَّعْظِيم[3].

فَائِدَةُ ذِكْرِ قَيْدِ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عُمُومُ الصَّيِّبِ وَاشْتِمَالُهُ عَلَى الْأَهْوَالِ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ

قولُه سبحانه عَنِ الصَّيِّبِ بأنَّه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إطْنَابٌ؛ إذِ المَطَرُ لا يكون نَازِلًا إلَّا مِنْهَا، وذلك لِأَرْبَعِ نِكَاتٍ:

إحداهَا: الإشارة إلَى أنَّه أمرٌ لا يَقْدِرُون عَلَى دَفْعِهِ؛ وذلك لما عُهِدَ من كلام بلغاء العربِ تَعْبِيرُهم عمَّا يقع على النَّاس مِمَّا لا قِبَلَ لهم بدَفْعِهِ بأنَّه نزل مِنَ السَّماء[4].

ثَانِيهَا: بيانُ أَنَّ الصَّيِّبَ عامٌّ مُطْبِقٌ، قد أخذَ بآفاقِ السَّماء، وهذا لا يُفيدُهُ لو قيل: (أو كَصَيِّبٍ فِيهِ ظُلُمَاتٌ)[5].

ثَالِثُهَا: التَّنبيه على كثرة ما فيهِ مِنَ الهَوْلِ؛ لأنَّ حصُولَ الألَمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/39.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/392.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/146.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 2/317.

بِشَيْءٍ يَنْزِلُ مِنْ مَوْضِعٍ شديدِ الارْتِفَاعِ، أشدُّ مِن حصُولِهِ مِمَّا يَنْزِلُ مِنْ موضعٍ دونَهُ في الارتفاعِ[1].

وكلٌّ مِنَ هذه النِّكات الثَّلاثِ يُعدُّ وجهًا من أوجه تعظيم الصَّيِّب، إضافةً إلى تَنْكِيرِ لفظه.

رابِعُهَا: أنَّه لِزِيَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورةِ الصَّيِّبِ في هذا الْمَثَلِ؛ فإنَّ المَقَامَ مقامُ إطنابٍ[2].

اخْتِصَاصُ السَّمَاءِ الْأُولَى بِالْمَطَرِ النَّازِلِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ

اللَّامُ فِي ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ:

السَّماء في قوله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ، وهي السَّماء الأولَى؛ إذْ لا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ الأخرى على أَهْلِ الأرضِ مَطَرٌ.

فائدةُ التَّنكيرِ في الكلماتِ الآتية: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾:

استِجْمَاعُ معاني التَّهويلِ والتَّرهيب

توالت الكلمات الآتية: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بالتزام التّنكير لإفادةِ معاني التَّهويل والتَّرهيب؛ والمعنى: فيهِ ظُلمات شديدةُ السَّوادِ كأنَّها اللَّيل، ورعدٌ يُصِمُّ الآذانَ، وبرقٌ يَخْطَف الأبصار، ولدفع تَوَهُّم العموم[3].

جَمْعُ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادُ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

كُلٌّ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ نَوْعٌ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ فَأَنْوَاعٌ

جُمِعتِ الظُّلماتُ وأُفْرِدَ الرَّعد والبرقُ في قوله ﷻ: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾؛ لأنَّ الظُّلماتِ أنواعٌ: ظلمةَ السَّحابِ، وظُلمةَ المطر، وظلمة البُعد، بخلافِ الرَّعد والبرق؛ فَهُمَا نوعٌ واحدٌ[4]؛ ولِأَنَّ الرَّعد والبرقَ في الأصل مَصْدَرَانِ؛ يقال: رَعَدَتِ السَّماء رعدًا، وبَرَقَتْ بَرْقًا، فَرُوعِيَ فِيهِمَا حُكْمُ أصلِهما فتُرِكَ جَمْعُهُما وإنْ كان المرادُ في المعنى الْجَمْعَ[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/317.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/140، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/66.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/174.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83.

نُكْتَةُ تَرْتِيبِ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

تَرْتِيبُ هذه الألفاظِ في قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ رُوعِيَ فيه اعتبارُ الكثرة في الوجودِ؛ فإنَّ الظَّلام موجودٌ في اللَّيل معَ كلِّ يومٍ، ثُمَّ الرَّعْدُ أكثر وجودًا مِنَ البرقِ؛ إذِ البرقُ لا يكون إلَّا مع رعدٍ، بخلاف الرَّعدِ فقد يكُونُ ولا برقَ مَعَهُ[1].

تَقْدِيمُ الغَايَةِ عَلَى الْوَسِيلَةِ، وَالِابْتِدَاءُ بِالْوَسِيلَةِ الْأَوْضَحِ

بَلَاغَةُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ:

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ عَمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه لَمَّا ذَكَرَ ما يُشْعِر بالشِّدَّةِ والهولِ، قيل: ما حالُهم مع هذه؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾[2].

بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الشَّدَائِدِ

فَائِدَةُ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِالْجَعْلِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بمادَّةِ (جعل) فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ دون (يُدْخِلُونَ) وهو ما يقتضيهِ الظَّاهرُ؛ فإنَّ الأصابع تُدْخَلُ في الآذَانِ ولا تُجْعَلُ؛ وذلكَ لِبَيَانِ شدَّة الْتِبَاسِ الأصابعِ بالآذان، حتَّى أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْهَا، وهو ما يُبَيِّنُ شدَّةَ الخَوْفِ والهَلَع لدى أُولَئِكَ الجُبَنَاء، فَهُمْ لا يُدخِلُون أصابعَهم في آذانِهم فَحَسْبُ، بل يَجْعَلُونَهَا فِيهَا دُونَ تَحْرِيكٍ أَوْ زَحْزَحَةٍ، بخلاف الإدْخَالِ؛ فإنَّه يُفيد مُجَرَّدَ معنى إدخالِ الأصابعِ في الآذان، وهذا المعنى المجرَّدُ لا يُعْطِي دلالة فِعْلِ الْجَعْلِ.

بَيَانُ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ الَّذِي يُصِيبُ الْمُنَافِقِينَ

نكتةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَصَابِعِ دُونَ الْأَنَامِلِ:

الْأَصَابِعُ في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ يُرَادُ بها الأنامِلُ، فَهُوَ مجازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه الكُلِّيَّةُ؛ والقرينَةُ: اسْتِحَالَةُ إدخال الْإِصْبعِ كلِّها في الأُذُنِ[3].

الْمُبَالَغَةُ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ بِسَدِّهِمْ مَسَامِعَهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/51.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/101.

ونُكتةُ المجاز ههنا: الإشارةُ إلى شدَّةِ جَعْلِها في الآذانِ، وقُوَّةِ الشَّدِّ لَهَا، حتى كأنَّهم يَجْعَلُونَ الْإِصْبَعَ كُلَّها في الأذن[1]، أو أنَّ ذلك لِلْمُبَالَغَةِ في إرادةِ سَدِّ مَسَامِعِهِمْ بِحَيْثُ لو أمكنهم لَأَدْخَلُوا الْإِصْبَعَ كُلَّها[2].

سِرُّ جَمْعِ (الْأَصَابِعِ):

شِـــدَّةُ حَـــيْرَةِ الْمُنَافِقِينَ

جُمِعَتِ الأصابعُ تَنْبِيهًا على شِدَّة حَيْرَتِهم وخَوْفِهم، وأنَّه لقلَّةِ تأمُّلهم لم يجعلُوا الإصبع المعهودَ إدخالُها في الأذنِ وهِيَ السَّبَّابة، بل تارةً يجعلون إصبعًا وتارة يجعلون أُخْرَى، حتَّى إنَّهم -لغلبة الحَيْرَةِ على عقُولِهم- ربَّما حاولوا جعلَ الجميعِ[3].

ويؤيِّدُ حيرتَهمُ الشَّديدةَ ظنُّهم أنَّ وضعَ الأصابع في الآذَانِ قد يَدْفَعُ عَنْهُمُ الموتَ[4].

أو أنَّ جمعَ الأصابعِ جاءَ مقابِلًا لجمع الآذانِ في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، والقاعدةُ في هذا: أَنَّ مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القِسْمَةَ آحادا، والمعنى: يجعلُونَ كُلَّ إِصْبعٍ في أُذُنٍ، ومِنَ المعلوم أنْ ليس لكلِّ واحدٍ مِنْهُمْ إِلَّا أُذُنَانِ اثْنَتَانِ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ:

الْـكُـفْـرُ أَعْـظَـمُ أَسْـــبَـــابِ اسْـتِـحْـقَـاقِ الْعَذَابِ

وَقَعُ الْمُظْهَرُ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فلم يقل: (وَاللّٰه محيط بِهِمْ)؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إِحْدَاهُما: إفادةُ التَّرْهِيب[5].

والأُخْرَى: الإعلامُ بِسَبَبِ استحقاقِهِمُ العذَابَ؛ وهو كُفْرُهُم[6].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/195.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/150.
(5) الطُّوفِيّ، الإشارات الإلهيَّة، ص: 44.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/67، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحَان: 1/221.

فَائِدَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاعْتِرَاضِ:

تَسْلِيَةُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بين أجزاء المَثَلِ: ما سبق مع قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، فَفِيهِ إِطْنَابٌ بالاعْتِرَاضِ، وفائدتُهُ: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين[1].

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِشِبْهِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ:

بَيَانُ حَالِهِمْ مَعَ الْبَرْقِ أَوْ مَعَ الصَّوَاعِقِ الْمُقْرُونَةِ بِهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بَيْنَهُمَا من شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصال، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ الجملة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر يُفْهَمُ ممَّا سبق، وهو أن يقال: ما حالُهم مع ذلك البَرْقِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾[2].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ السُّؤَالِ: ما حالُهم مع تلك الصَّواعق؟ فكان الجواب: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾، وتكونُ اللَّامُ الْعَهْدِيَّةُ في (البرق) عوضًا عَنِ المُضاف إِلَيْهِ، والمعنى: يكاد بَرْقُهَا، أي: بَرْقُ الصَّواعق.

فالصَّواعِقُ المَسْؤُولُ عَن حَالِهِم معَهَا هي الصَّواعق المقرونَةُ بالبرق، وإِلَّا لم يَتَطَابَقِ الجوابُ مع السُّؤالِ[3].

تَعْرِيفُ ﴿ٱلْبَرْقُ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّرِيحِيِّ:

اللَّام في (البرق) من قول الله جَلَّ وعلا: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحيِّ؛ إِذْ سبق ذكرُ مدخولِ اللَّام صراحةً في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[4].

إِيثَارُ اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

المضارع في (يكاد) يُساعد على اسْتِحْضَارِ الْحَالِ لِبَيَانِ قُوَّةِ الْبَرْقِ

آثَرَ النَّظم الكريمُ التَّعْبِيرَ بالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَكَادُ﴾ دُونَ (كَادَ)؛ لأنَّ المقصودَ اسْتِحْضَارُ قوَّةِ البَرْقِ وأثرِه في سَلْب الأَبْصَار؛

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 1/197.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/84.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/402.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/146.

لذلك آثَرَ فعلَ المُقارَبَة، أمَّا الفعلُ المُضَارِعُ ﴿يَخْطَفُ﴾ الواقِعُ في خَبَرِ (يكَادُ) فهو شَرْطٌ فِيهَا؛ تَنْبِيهًا على أنَّه المقصودُ بِالْقُرْبِ[1].

بلاغةُ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

أَثَـرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْـرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

وقَعَتْ جملة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ استئنافًا بيانيًّا، وهو الاستئنافُ البيانيُّ الثَّالثُ في هذا السِّياقِ؛ فالجملة واردةٌ جوابًا لِسُؤَالٍ يُفهَمُ مِمَّا قبلُ، وتقديرُهُ: كيف يَصْنَعُونَ في حالَيْ لَمْعِ البرقِ واختفائِهِ؟ فجاء الجواب: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾[2] لِبَيَانِ الْحَالِ وإبرازِ الشَّوْقِ والمتابعةِ في ذِهْنِ المُتَلَقِّي، فَهُوَ لَيْسَ إخبارًا مُجَرَّدًا، بل هُوَ جوابٌ عمَّا يجولُ في النَّفس مِن تشوُّقٍ لمعرفةِ موقفِ المنافقين ممَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماء.

اخْتِيَارُ الْأَدَوَاتِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:

أَثَرُ الْأَدَاةِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِظْـهَـارِ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالدَّلَالَاتِ الْخَفِيَّةِ

لِلْأَدَاةِ النَّحويَّة في الاستعمالِ القرآنيِّ بلاغةٌ عاليةٌ في الكَشْفِ عَنْ مَضَامِينِ المعَانِي، ومِنْ ذَلِكَ استعمالُ ﴿كُلَّمَآ﴾ مع الفعلِ ﴿أَضَآءَ﴾، و﴿إذا﴾ مع الفعلِ ﴿أَظْلَمَ﴾؛ إذْ تركَّزَت دلالة ﴿كُلَّمَآ﴾ على إظهارِ حرصِهم في انتهازِ الفُرصَة لِلْمَشْيِ والمُضِيِّ[3]، فَهُمْ يَتَرَقَّبون أدنَى فرصة لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سبيلًا، بخلاف (إذَا)؛ فَإِنَّها تفيدُ تحقُّقَ التَّوقُّفِ عَنِ الْمَشْيِ، وهذا يَكْشِفُ ما يَجُولُ في نفوسِهم مِنْ طَلَبِ الْمَهْرَبِ وَالِانْفِلَاتِ؛ إذْ همُّهم قائمٌ على ذلكَ.

اخْتِلَافُ مَعْنَى فِعْلِ الْإِضَاءَةِ بِاعْتِبَارِ التَّعَدِّي وَاللُّزُومِ:

بَدِيعُ اسْتِعْمَالِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ لِلْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِتَحْقِيقِ مَعْنَيَيْهِ بِتَكَامُلٍ دِلَالِيٍّ

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا، والمعنَى: كلَّما نوَّر لَهُمْ مَمْشًى وَمَسْلَكًا أخَذُوهُ، والمفعولُ حينَئِذٍ يكُونُ مَحْذُوفًا، وَيَحْتَمِلُ أن يَكُونَ لازِمًا، والمَعْنَى: كلَّما لمَعَ لَهُمْ مَشَوْا في مَطْرَحِ نورِه وملقى ضَوْئِه[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/52.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.

فإذا كان فعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا؛ فإنَّهُ يفيدُ معنى تَنْوِيرِ المَمْشَى والمَسْلَك، وإذا كان لازمًا؛ فيفيدُ معنى اللَّمْعِ الخاطِف، وبين المعنَيَيْن تكاملٌ بديعٌ، وهو الكشفُ عَنْ حِرْصِ المُنَافِقِين الشَّديد في البحثِ عَنْ أَدْنَى سببٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ مَأْزِقِهم، سواءٌ أكان تَنْوِيرًا لِمَمْشَاهُمْ، أَمْ كان لمعًا خاطفًا يأتيهم مِنْ فَوقِهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ ﴿أَضَآءَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ:

جاءَ التَّعبير هُنَا بالإضاءةِ دُونَ الْإِنَارَة حيث قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ دون (أنارَ لهم)؛ لنُكْتَتَيْن[1]:

امْتِزَاجُ الْمُفْرَدَةِ بِالسِّيَاقِ وَأَثَرُهُ فِي تَوْلِيدِ الْمَعَانِي السِّيَاقِيَّةِ

إحداهما: زِيَادَةُ التَّخويف؛ فإنَّ شدَّة الضَّوء عقب شِدَّة الظُّلمةِ أَدْخَلُ في التَّخويفِ.

والأُخرى: الإيماءُ إلى أنَّها ظلمةٌ عظيمةٌ لا يُزيلُها إلَّا الضَّوءُ الشَّديد دون النُّورِ القليلِ.

ويؤيِّدُ هاتين النُّكْتَتَيْنِ قولُه بعدُ: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ دون (وإذا ذهب الضَّوءُ عَنْهُمْ)؛ لأنَّ الإخبار بذَهَابِ الضَّوء يحصلُ مِنْهُ مُطْلَقُ الظُّلمةِ، وآثر النَّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾؛ إيماءً إلى شِدَّة الظُّلمة؛ فالأمر دائرٌ بين شِدَّةِ ضوءٍ أو شِدَّة ظلمةٍ، وهذا أشدُّ في التَّخويف.

ولذا قال سبحانه: ﴿أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ لِبَيَانِ أنَّ الإظلامَ ليس مجرَّد ذهابِ الضَّوْء، بل كان عقوبةً مقصودة، وأكَّد هذا المعنى: المقابلةُ بين ثلاثةِ معانٍ:

الأول: ﴿أَضَآءَ﴾ و ﴿أَظْلَمَ﴾.

والثاني: ﴿لَهُم﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾.

والثالث: ﴿مَّشَوْاْ﴾ و﴿قَامُواْ﴾.

فهذه المعاني الثَّلاثة المتقابلة دالَّةٌ على شدَّةِ ما هُم فيه مِن الظُّلمةِ والمَخَاوِف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.

بَلَاغَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الْمَشِيئَةِ:

تَشْوِيقُ الْمُتَلَقِّي وَتَشْوِيرُ فِكْرِهِ لِمَعْرِفَةِ الْجَوَابِ

حَذْفُ مفعولِ المشيئةِ بعد الشَّرط شائعٌ في كلام العرب[1]، وقصدُهم مِن ذلك: البيانُ بعد الإبهام[2]، فيحذفُونَ المفعولَ في الشَّرط؛ لدلالة الجزاء عَلَيْهِ، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي: ولو شاء اللهُ إذهابَ سَمْعِهِم لذَهَبَ بِهِ.

وهذَا الحذفُ يَبْعَثُ في النَّفْسِ تشويقًا لمعرفة الجوابِ، فإذا جاء الجوابُ؛ وقع على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لَهُ، فيتمكَّن مِنْهَا غايةَ التَّمكُّن.

بَلَاغَةُ الجَمْعِ وَالإِفْرَادِ فِي المَثَلِ القُرْآنِيِّ:

ارْتِبَاطُ الْجَمْعِ بِكَثْرَةِ الْمُتَعَلَّقَاتِ، وَارْتِبَاطُ الْإِفْرَادِ بِالْوَحْدَةِ

جاء السَّمعُ مفردًا والبصرُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ ليتَّسقَ مع ما يُقرِّرُه المثلُ القرآنيُّ مِن معانٍ؛ فالإضاءَةُ والإظلامُ والمشيُ والقيامُ مِن توابعِ البَصَر، وتَكْرَارُ الإضاءةِ بدَرَجَاتِهَا المتفاوِتَةِ يدُلُّ على تَكْرَارِ الإبْصَارِ بدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وطولُ الإضاءَةِ يُؤثِّر في زمن المَشْي، فكان البصرُ متعدِّدًا باعتبار تعدُّد متعلَّقاته؛ ولذلك جُمِع، بخلاف السَّمع، فإنَّه واحدٌ باعتبارِ المَسْمُوعِ والسَّامع.

من ناحية أخرى، السَّمع مصدرٌ، والمصادرلا يحْسُن جمعها، والأبصار يراد بها الأعين الباصرة. والسَّمع مركزي تصل إليه الأصوات من كل الجهات، والعين لا تبصر الشّيء إلا إذا اتَّجَهَت إليه، وجمع الأبصار يتناسب مع توجّهها للجهات المختلفة.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ:

أَهَمِّيَّةُ السَّمْعِ بِاعْتِبَارِ تَلَقِّي الْوَحْيِ

قُدِّمَ السَّمعُ عَلَى الأَبْصارِ؛ باعتبارِ أهميَّته في تلقّي المسموع وهو الوحي، وللإشَارَة إلى مَرْتَبَتِهِ وأثرِه في فَهْم الحقِّ والبَاطِل، وكان مقتضَى الظَّاهرِ تقديمَ البَصَرِ باعتبارِ ذِكْرِ الإظلامِ والإضاءةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/87.

(2) السّبكّي، عروس الأفراح: 1/374-375.

وهما من متعلِّقاته؛ وسببُ ذلك دَفْعُ وَهْمٍ قد يَظنُّه ظانٌّ؛ وهو أنَّ البَصَرَ مُقدَّمٌ على السَّمعِ في هذا المَثَلِ على الخُصوصِ؛ فأبانَ تقديمُ السَّمعِ على البَصَر أنَّه المقدَّمُ؛ لأنَّه صاحِبُ الأهميَّة البَالِغة، وأنَّ البَصَرَ يبقى تابعًا له في الأهميّة.

بَلَاغَةُ الْفَصْلِ بِالْفَاصِلَةِ:

جاءَت الفاصلةُ مبرزةً قدرةَ الله تعالى على كلِّ شيء في نهاية المَثَل، فكانت بِمَنْزِلَةِ الكلَامِ المؤكِّد لمضمون المَثَل الْكُلِّيِّ؛ ولذا فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ولم يُعطَف عمَّا قبله؛ لأنَّه كالتَّأكيد لما قبلَهُ[1]، فهي ليست خبرًا مستقلًّا، وضُمِّنَتْ معنى التَّهديد والوعيد؛ فإنَّ إذْهابَ السَّمع والأبصار كُلِّيًّا عن جماعةٍ بِعَيْنِهَا، ممَّا قد يُتوَهَّمُ فِيهِ ضربٌ مِنَ التَّجَوُّزِ، فكانَتِ الفاصلةُ مؤكِّدةً هذا المعنى، ومهدِّدةً ومتوعِّدةً مَنْ يُصِرُّ على باطِلِه ونفاقِه، وقد جَرَتْ هذه الفاصلةُ مجرى المَثَل؛ لتضمُّنِهَا معانيَ غزيرةً، وَاسْتِقْلَالِهَا بِالْإِفَادَةِ.

الفاصلة مؤكّدة لمضمون المثل، ومهدّدة للمنافقين

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْمَشِيئَةُ وَالْإِرَادَةُ:

المشيئة والإرادة متقاربتانِ، ولذا فسَّرَ كثيرٌ مِن علماء العربية أحدَهما بالآخرِ[2]، وربَّما أفاد صنيعُهم أنَّهما بمعنًى واحدٍ من جهة اللُّغة[3].

وذكر أبو البقَاءِ أنَّ بينَهما فرقًا من جهة اللُّغة؛ إذْ إِنَّ الْمَشِيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادةَ لُغَةً: طلبُ الشَّيءِ[4].

وفرَّق بينهما أبو هِلَالٍ؛ بأنَّ الإرادةَ تكون لِما تراخَى زمَنُه ولِمَا لا يتراخى، بخلاف المشيئة فَهِيَ لِما لَم يتراخَ زمَنُهُ؛ فالإرادة أعمُّ مطلقا مِنَ المشيئة[5].

---

(1) حاشية زاده: 1/349.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ) و(رود)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (شيأ)، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رود).

(3) الشّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 216.

(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 75.

(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 35.

أمَّا المشيئة والإرادة باعتبار تعلُّقِهما باللهِ تعالى: فالإرادة أعَمُّ مِنَ المشيئة مطلقًا؛ لأنَّ الإرادة تَشْمَلُ الإرادة الكَوْنِيَّةَ والإرادة الشَّرعيَّة، أمَّا المشيئةُ فهي مرادفةٌ لِلْإِرَادَةِ الكَوْنِيَّةِ[1].

(1) حافظ حَكَمِي، أعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطَّائفة النَّاجية المنصورة، ص: 88.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»